الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس والفتنة اليهودية بقسنطينة في أوت 1934

Sheikh Imam Abdel Hamid Ben Badis and the Jewish sedition In Constantine in August 1934

إبراهيم لونيسي
جامعة جيلالي ليابس-سيدي بلعباس
lounicib@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2024/12/01 تاريخ القبول: 2025/12/09 تاريخ النشر: 2026/02/21

الملخص:

عرفت مدينة قسنطينة خلال شهر أوت 1934 أحداثا مروعة تسبب فيها بعض اليهود، وكانت أن تتحول إلى فتنة حقيقية بين المسلمين واليهود، لولا قيام بعض رجالات الحركة الإصلاحية والسياسية الجزائرية ببذل مجهود كبير لإخمادها، وهذا في الوقت الذي كانت فيه الشرطة الفرنسية تتفرج على الأحداث. ولقد قام الشيخ الإمام عبد الحميد ابن باديس بتسجيل تطورات هذه الأحداث منذ بدايتها يوم الجمعة 03 أوت 1934 إلى غاية انتهاءها في تقرير صحفي مطول نشره على صفحات مجلته (الشهاب)، فماذا كتب الشيخ الإمام عن هذه الأحدث وكيف نظر إليها؟

الكلمات المفتاحية: الفتنة؛ التسامح الإسلامي؛ العداء للسامية؛ الإدارة الاستعمارية؛ النواب المسلمين؛ النواب اليهود.

Abstract:

The city of Constantine witnessed horrific events during the month of August 1934 caused by some Jews, which could have turned into a real strife between Muslims and Jews, had it not been for the great efforts of some men of the Algerian reform and political movement to quell it, while the French police were watching the events. Sheikh Imam Abdel

Hamid Ibn Badis recorded the developments of these events from their beginning on Friday, August 3, 1934, until their end in a long newspaper report published in the pages of his magazine (Al-Shihab). What did Sheikh Imam write about these events and how did he view them?
Keywords: strife; Islamic tolerance; anti-Semitism; colonial administration; Muslim representatives; Jewish representatives.

المقدمة:

ما من أحد يمكن له أن ينكر بأن يهود الجزائر كانوا ذات يوم من أيام القرون الخوالي يعيشون معززين مكرّمين في هذه البلاد ! وما من أحد أيضا أن ينكر أن يهود الأندلس لم يجدوا من ملجأ آمن أثناء حروب الاسترداد التي قادتها الملكة إيزابيلا Isabella وزوجها فيرديناند Ferdinand مع الربع الأخير من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر سوى البلاد المغاربية ومنها المغرب الأوسط - الّذي أصبح بعد ذلك يسمى بالجزائر- ليفروا إليها بالآلاف وقد عاشوا في الجزائر لقرون عديدة في أمن وسلام. بل والأكثر من ذلك تولوا مهام سياسية واقتصادية رفيعة المستوى، وكانوا في الكثير من المرّات يحظون بمكانة مرموقة في الدولة، لم يكن يحظى بها الكثير من الجزائريين، وما هذا إلاّ دليل قاطع على روح التسامح التي كان يتحلى بها الإنسان الجزائري المسلم.

إلاّ أنّ هؤلاء لم يقابلوا ذلك سوى بجحود وإنكار كبيرين، بل والأكثر من ذلك نجد البعض منهم قد ساهم مساهمة فعالة في المؤامرة التي حيكت ضد الدولة الجزائرية خلال الثلث الأوّل من القرن التاسع عشر والتي أدت إلى تحطيم الدولة الجزائرية وتقويض أركانها من الاحتلال الفرنسي سنة 1830، وكان على رأس هؤلاء اليهود ميشيل كوهين بكري وصديقه نافتالي بوشناق.

وبدون شك أن الجميع يعرف أنه من الصفات البارزة التي يتصف بها اليهود هو استعدادهم الفطري لإثارة الفتن والقلاقل، ونشر الفساد في المناطق التي يقيمون فيها، أو

يحلّون بها، وهي الحقيقة التي يقرّها الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز في العديد من الآيات القرآنية، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى في الآية 64 من سورة المائدة: ﴿ ***وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ***﴾ ويقول عنهم أدولف هتلر الذي خبرهم كثيرا في حياته الخاصة والعامة، في كتابه (كفاحي): «... فمنذ أن وضع اليهود والبلاشفة نصب أعينهم تقويض الدولة الألمانية، رأينا الرذيلة تنصب شراكها في طريقة الشبيبة الألمانية كيفما اتجهت وأنى وجدت، ورأينا عرش الإباحية والخلاعة ينتصب في دور العرض السينمائي والمرابع والحانات، وحتى في الساحات العامة... وكيف يرجى من شبيبة هذا شأنها أن تهب للذود عن الوطن وأن تستميت في الدفاع عن مؤسساته وتقاليده».

وانطلاقا من هنا حاول اليهود إفساد المجتمع الجزائري بشتى الوسائل والطرق، مع بدايات الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر، وبسبب ذلك عانى الجزائريون الكثير من اليهود خاصة بعد صدور قرار كريميو في 24 أكتوبر 1871 الذي قضى بتجنيس كل يهود الجزائر تجنيساً جماعياً، وهو القانون الذي منح لهم امتيازات كثيرة ومكانة خاصة في المجتمع الجزائري مما زاد من حدة غطرستهم وتعنتهم وتسلطهم على الجزائريين، وفي الوقت ذاته أصبحوا أداة طيعة في يد الإدارة الاستعمارية لتوظيفهم في خدمة أهدافها وأغراضها الاستعمارية في الجزائر.

ونحن في هذه الدراسة لن نستعرض النشاط اليهودي في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية، هذا النشاط الذي ما تزال الكثير من صفحاته مجهولة وتحتاج إلى دراسة

وتحليل، وكذا العمل على الكشف عنها، إنما سنحاول الوقوف عند إحدى الفتن التي حاول هؤلاء اليهود إثارتها في الجزائر وتحديدا في مدينة قسنطينة خلال شهر أوت 1934، والتي خصها رائد النهضة الجزائرية الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس بمقالة تسجيلية تحليلية طويلة ونشرها على صفحات مجلة الشهاب خلال شهر سبتمبر 1934 [1] بعنوان (فاجعة قسنطينة) وتعد هذه المقالة مصدراً هاماً لتسجيل تاريخ هذه الحوادث من بدايتها حتى نهايتها ونظرا لأهميتها ارتأينا القيام بدراستها وتحليلها، خاصة وأن صاحبها الإمام عبد الحميد ابن باديس يعتبر شاهد عيان عليها، كما أنه لعب دوراً هاماً في إخماد نار هذه الفتنة التي كادت أن تشمل كامل قسنطينة، والتي كان من الممكن أن تسفر عن نتائج وخيمة وخطيرة لا يحمد عقباها، ولكن قبل الشروع في استعراض محتويات هذه المقالة الوثيقة نود أن نعطي ولو لمحة سريعة عن نشاط اليهود وبعض تصرفاتها عشية الأحداث وكذا كيف كانت توظفهم الإدارة الاستعمارية وتسعى إلى إيجاد خلافات بينهم وبين المسلمين الجزائريين لأغراض ومصالح استعمارية؟

1- الإدارة الاستعمارية وتغذية الخلافات بين المسلمين الجزائريين واليهود:

أخذ اليهود في استغلال الظروف السيئة والمتدهورة التي بدأ الشعب الجزائري يعيش في ظلّها مباشرة بعد دخوله تحت السيطرة الفرنسية، ومما لا شكّ فيه أنهم تمادوا في هذا الاستغلال إلى أبعد الحدود، خاصة وأن الإدارة الفرنسية تقربهم إليها بعد تفطنها إلى أهميتهم - أي اليهود- فكانت تشجعهم في كل ما كانوا يقومون به ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر، قيامهم باستغلال مجاعة 1867- 1869 التي كادت أن تعصف بالمجتمع الجزائري، أبشع استغلال، لكي يزيدوا من قيمة ثرواتهم وأرباحهم عن طريق القروض التي كانوا يقدمونها للمنكوبين بفوائد وأرباح عالية جدا تتراوح ما بين 40% و100% لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر

فقط، مما أدى إلى فقدان العشرات من الجزائريين لكل أملاكهم في مدة زمنية قياسية. ويذكر المؤرخ يحي بوعزيز أن السيد بيدولت Bedollet يورد في كتابه (الحقيقة عن الجزائر) والمطبوع سنة 1871 الكثير من الحوادث المؤكدة لذلك، فيقول في أحد مواضع الكتاب بأن الجزائريين حتى عندما تخصب أراضيهم ويرتفع مردودها فإن السماسرة اليهود يتدخلون لخفض أسعار حبوبهم بنسبة 20% إلى 30% بالتعاون مع بعض المعمرين[2]، بل وحتى الحاكم العام الماريشال مكماهون Mac.Mahon (1864- 1870) يشير إلى هذه القضية في أكثر من موضع في مذكراته المنشورة سنة 1932، إذ يذكر مثلا أن رؤساء الأهالي دفعوا كل ثرواتهم التي استردوها من صغار الفلاحين إلى السماسرة اليهود أرباحا فاحشة عن القروض التي أخذوها منهم، وهناك أحد المعمرين كتب رسالة إلى الإمبراطور نابليون الثالث Napoleon III خلال شهر ماي 1865 يقول له فيها أن أهالي عمالة وهران يدفعون لليهود أموال ضخمة كربا تقدر بأكثر من أربعة أضعاف ما يدفعونه لفرنسا كضرائب[3].

وبشكل عام فإن اليهود أصبحوا من أكبر المساعدين للإدارة الاستعمارية في فرض سيطرتها على الجزائر، خاصة وأنهم كانوا يعرفون الكثير من الأمور عن المجتمع الجزائري، وكذا عن طريقة تفكير الإنسان الجزائري من خلال معاشرتهم الطويلة لهذا الإنسان، وللاحتكاك الطويل والمستمر الذي كان بينهما، فاليهود بهذا الشكل استغلوا العلاقة التي تربطهم بالجزائريين لصالح الاستعمار الفرنسي وبذلك بدأت لعبة (القط والفأر) بين الإدارة الاستعمارية من جهة ويهود الجزائر من جهة أخرى، تلعب على حساب الشعب الجزائري فشرعت الإدارة الفرنسية في التفكير جدياً في وضع مشروع قانون تمنح بمقتضاه الجنسية الفرنسية لجميع يهود الجزائر، وهذا منذ سنة 1843، بعد أن كانت قد أدمجتهم في القانون الفرنسي العام وألغت المحاكم الدينية الخاصة بهم سنة 1841، وأعطت لهم حق تعيين

مندوب عنهم في المجلس المالي المختص بشؤون الضرائب والمكلف بتخصيص الإعانات التي تنفق على الشؤون الدينية.

وكان الحلم الأكبر ليهود الجزائر هو الحصول على الجنسية الفرنسية بشكل جماعي، وهو ما تحقق لهم بمقتضى قرار كريميو الصادر في 24 أكتوبر 1870 ولقد ناضل المحامي أدولف كريميو Adolph Crémieux الذي أخذ القرار اسمه طويلا للوصول إلى ذلك، حيث وثق صلاته بيهود الجزائر، وزار الجزائر حوالي 17 مرة قبل صدور القرار للاتفاق معهم على الإطار الذي يجب أن يوضع فيه مشروع تجنيسهم بشكل جماعي، والذي دافع عليه بكل شراسة داخل البرلمان الفرنسي، وهو المشروع الذي جسده على ارض الواقع عندما عيّن وزيراً مكلفا بشؤون الجزائر في حكومة الدفاع الوطني التي تشكلت بعد انهيار النظام الإمبراطوري في فرنسا بعد الحرب الفرنسية البروسية التي جرت في منتصف سنة 1870.

وبعد تجنيس هؤلاء اليهود جماعيا بالجنسية الفرنسية، أصبح الأمر سهلا جدا على الإدارة الاستعمارية الفرنسية لتوظيفهم بشكل بارز ومفضوح في تغذية الفتنة بينهم وبين المسلمين الجزائريين بهدف الرفع من عملية قمع الجزائريين المطالبين بالتحرر والإصلاح الاجتماعي والثقافي وبحقهم في العيش الكريم[4].

ولقد ذكر يوسف مناصرية العديد من الأحداث التي حدثت في الجزائر مع الثلث الأول من القرن العشرين، والتي حاولت من خلالها الإدارة الاستعمارية خلق خلافات وصراعات بين المسلمين واليهود، ومن بينها ما وقع في سطيف يوم 18 جويلية 1920 عندما ادعت السلطات الاستعمارية أن المسلمين الجزائريين قاموا بضرب أحد اليهود وأفقدوه وعيه، وخربوا المتاجر اليهودية وأتلفوا السلع، وقاموا بسرقة بعضها، وقومت حينئذ بنحو نصف مليون فرنك كما اتهمتهم أيضا بضرب قائد مجموعة الرماة المسمى روي Roy، وتركه في وضعية خطرة

مما أدى إلى إطلاق النار على المسلمين، وبسبب تدهور الأوضاع في مدينة سطيف تم الإعلان عن حالة الطوارئ بها[5].

ونذكر أيضا هنا ما قامت به السلطات العسكرية الفرنسية سنة 1928 عندما قررت عزل اليهود من صفوف فرق الرماة والصبايحية بحجة أن الرماة المسلمين لا يحتملون وجود زملائهم اليهود، وأن هؤلاء أصبحوا مصدر شغب في صفوف المسلمين، وهو التصرف الذي أثار غضب وأحاسيس اليهود بصفة عامة، فقدموا شكوى إلى جمعية حقوق الإنسان بينوا فيها أنهم عاشوا جنباً إلى جنب مع المسلمين منذ أمد طويل في سلام ووئام، وطلبوا من الجمعية التدخل لدى وزارة الحربية الفرنسية لرفع المظالم عنهم.[6]

وفي الوقت الذي كان فيه المسلمون الجزائريون يعيشون حياة ضنكة بسبب القوانين الجائرة والتعسفية، وارتفاع الضرائب المفروضة عليهم وانعكاس كل ذلك على المستوى المعيشي للإنسان الجزائري، كان اليهود يعيشون حياة الرفاهية، ويتمتعون بالكثير من الحقوق والامتيازات الممنوحة لهم من الإدارة الفرنسية. ويذكر محفوظ قداش أن اليهود والمسلمين كانوا يتعايشون في سلام بقسنطينة، كما هي الحال في العديد من المدن الجزائرية، ولكن بؤس أولئك كان يتباين مع ثراء هؤلاء[7].

ويذكر علي مراد أن المسلمين الجزائريين واليهود في قسنطينة عاشا إلى غاية أوت 1934 في سلام ووئام فلم تؤلب المعارضة السياسية إحداهما ضد الأخرى، كما أن المشاعر الدينية لم تكن أبدا مصدراً للفتنة بين اليهود والمسلمين في الجزائر، ويتساءل علي مراد أنه من الصعب التسليم بأن حادثا من قبيل الأحداث التافهة قد يتسبب وحده في إحداث موجة من الحقد والوحشية؟[8]

2- في أسباب حدوث الفتنة:

إن هذه المقالة -التقرير-التي كتبها الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس بشأن هذه الأحداث لها قيمة وأهمية خاصة، كون صاحبها يعدّ شاهد عيان على تلك الفاجعة التي انفجرت يوم الجمعة 3 أوت 1934 إثر عملية لا أخلاقية قام بها أحد اليهود واسمه (الياهو خليفي) أو (كاليفا ايلياو) حسب محفوظ قداش وهو ضابط منتدب لدى فرقة الزواف العسكرية وقد لعب الخمر برأسه[9]، وإن كان هو نفسه نفى حالة السكر تحديا للمسلمين[10] وبال على جدران جامع سيدي لخضر الغريب من حي اليهود بمدينة قسنطينة، ويقول الشيخ الإمام في تقريره أنه في هذا اليوم أي 3 أوت 1934، كانت هناك مجموعة من المصلين في ميضأة الجامع الأخضر إثر صلاة العشاء، إذ أطل عليهم ذلك اليهودي من نافذة الميضأة متهما إياهم وكل المسلمين بكشف عوراتهم عند الوضوء، وقال لهم "يلعن دينكم وصلاتكم وجامعكم وكبراءكم" فأجابه بعض الحاضرين: "نحن لا نكشف عوراتنا عند الوضوء، وديننا ينهانا عن كشف العورة... ولا نلومك لأنك سكران"، ولقد تمسك الذين كانوا داخل بيت الوضوء في أعصابهم رغم كلامه الفاحش والجارح، ولكنهم سرعان ما يفقدون أعصابهم عندما لاحظوا تمادي اليهودي حيث رد عليهم "لا راني بعقلي، وراني عسكري..." وأخذ في شتم النبي محمد صلّى الله عليه وسلم، وخرج الذين كانوا في الميضأة قصد رد اليهودي إلى صوابه بما يستحقه من تأديب، ولكنهم وجدوا شرطيين حيث خلصاه من المشكلة، وأمراه بالدخول إلى مسكنه القريب، وصرفا المسلمين مهدئين لهم بأنه ستقام عليه العقوبة القانونية[11].

هذه هي الحادثة التي أشعلت فتنة قسنطينة، وأود الإشارة هنا إلى أن أبا القاسم سعد الله يذكر أن هناك روايات كثيرة تروى حول بداية هذه الفتنة، فقد قيل أن جنديا يهوديا جرح شعور المسلمين عندما دخل الجامع الأخضر أثناء صلاة الجمعة الموافقة ليوم 3 أوت

1934، وتلا ذلك اضطراب ومشادات لكن بدون ضحايا، وتدخل الجيش والشرطة لإعادة الأمن والنظام، وانتهى ذلك اليوم بدون أحداث أخرى[12].

ويذكر إبراهيم بن العقون في مذكراته أن ذلك اليهودي عندما نهرته الشرطة وأمرته بالدخول إلى منزله، وانصاع إلى أوامرهم، إلا أنه لم يلبث أن أطل على الناس ومعه زوجته من نافذة مسكنهما وشرعا في السب ورمي القاذورات، والأواني المكسورة على المسلمين، وخرج جيرانهم من اليهود وشرعوا هم أيضاً يسبون ويرمون، وبالرغم من أوامر الشرطة لليهودي بالكف والاستسلام لها للبحث والاستنطاق أبى وامتنع امتناعا كلياً، وتفاقم الأمر وجاءت كوكبة من الشرطة المدنية، ولكن دون جدوى، كل ذلك نتيجة إحساس اليهودي بأن الإدارة ستكون إلى جانبهم كما هي العادة[13].

ولقد صنفت هذه الأحداث في خانة العداء لليهود ومعاداة السامية، هذه الفكرة التي اخترعها اليهود بدهائهم ومكرهم حتى يصوّروا أنفسهم دائما في موقع المظلومين والطرف الآخر في موقع الظالم. ولقد انطلت هذه الحيلة على جل المفكّرين والكتّاب الغربيين حيث سايروا اليهود في هذه الفكرة، وبواسطتها نجح اليهود في افتكاك الكثير من الأشياء التي كانوا يدعون بأنها حقوقا لهم اغتصبت منهم، ومن حقهم اليوم استرجاعها !! وانطلاقاً من هذا الاعتقاد الراسخ لدى هؤلاء حملوا الجزائريين مسؤولية الأحداث وبأنهم هم الذين اعتدوا على اليهود وليس العكس.

3- تطوّرات الأحداث حسب تقرير ابن باديس:

لقد قام الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس بتسجيل حقيقة ما جرى خلال هذه الأحداث حيث كتب يقول أن الناس خرجوا من الجامع الأخضر مستاءين كثيراً من ذلك الكلام

الجارح الذي تفوّه به ذلك اليهودي، إلا أن قيم المسجد هدأهم وطلب منهم أن يقدموا شكوى إلى مدير الشرطة، وما كان من المصلين إلا تنفيذ ما طلبه قيّم الجامع، إلا أن اليهودي الذي تسبب في ذلك رفض الامتثال لأوامر الشرطة، كما أن هذه الأخيرة لم تحاول إرغامه على الامتثال لسلطة القانون، بل تركته وشأنه، مما شجعه على العودة مرة أخرى إلى سبّ وشتم المسلمين، حيث يقول الشيخ الإمام بأنه بعد ذهاب الشرطيين المبعوثين من مديرية الشرطة، وقف اليهودي وزوجته من نافذة بيتهما وأخذا في السب مثل الأول، إلا أن الناس أمسكوا غضبهم، وصبروا عليه، وأرسلوا القيّم على الجامع إلى المفتي ليقوم بكف عادية هذا المعتدي بواسطة الحكومة، وانتظر الناس المفتي على أحرّ من الجمر، وبينما الناس كذلك عاد الشرطيان فوجدا الناس متجمهرين فلما سألوهم لماذا رجعتم؟ قالوا لهما: "إنه عاد إلى السبّ كما تسمعان"، وكان هو وزوجته إذ ذاك ما زالا في النافذة على حالهما، وكان غيرهما قد شاركهما في السبّ، وسمع الشرطيان بعض الناس يقول: نهجم على داره، فما كان من هذين الشرطيين إلا أن ذهبا إلى باب بيته لحراسته.

ويقول ابن باديس أنه في هذه الظروف بدأ اليهود المجاورون برمي الكوانين والبيادين، وما كان من المسلمين إلا الدفاع عن أنفسهم، حيث شرعوا برمي الحجارة، ولكن اليهود أخذوا في إطلاق الرّصاص عليهم، ويمكن لنا أن نستنتج من كلام الشيخ الإمام هذا: أن المسؤولية في كل هذا تتحملها بالدرجة الأولى الشرطة الفرنسية التي لم تحاول إرغام اليهودي إلياهو خليفي على الامتثال لأوامرها، ولو كان الأمر يتعلق بجزائري مسلم لاستعملت معه شتى وسائل القوة لإخضاعه وردعه.

كما أنّ المتسبب في هذه الأحداث هم اليهود، أما المسلمون فإنهم تحلّوا بالصبر إلى آخر لحظة، واستعملوا كل الوسائل السلمية المتاحة لهم لإيقاف اليهودي عند حده، ولكن هذا

الأخير تمادى في انتهاكه لمشاعر المسلمين لأنه وجد نفسه محمياً من الشرطة الفرنسية، إذ شرع رفقة أصحابه من الملة في ضرب المسلمين، مما دفع هؤلاء إلى الدفاع عن أنفسهم.

ويذكر الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس أن المفتي عاد مرّة أخرى إلى مكان وقوع الحادثة حيث شرع في تهدئة الناس، إلا أنّ هؤلاء وصل بهم الغضب إلى درجة لا تطاق، حتى قال لهم بعضهم: "من برودكم لحقتنا هذه الإهانات كلها، حتى وصلنا لهذه الحالة"، كما أنه في ذات اللحظة وصل الدكتور محمد الصالح بن جلول (1897- 1985) الذي يرى البعض أنّه لعب دوراً بارزاً في إخماد هذه الفتنة وأنه ظهر بوجه وطني غيور على بني جلدته، حيث استخدم كل إمكاناته الوظيفية والسياسية والشخصية في الدفاع على سكان قسنطينة في صراعهم مع اليهود، حتى بلغت به الشجاعة والجرأة الوطنية إلى أن يصفع أحد ضباط الشرطة الفرنسيين بعد أن افتك من بين يديه أحد القسنطينيين كان يهم بضربه، وقد مثل ابن جلول من جراء ذلك الموقف أمام محكمة قسنطينة التي حكمت عليه بأربعة شهور سجنا غير نافذة وبغرامة مالية مقدارها 100 فرنك فرنسي قديم[14].

ويقول عنه ابن باديس أنه بمجرد وصوله إلى مكان الأحداث شرع الدكتور ابن جلول في تهدئة الناس، وهذا في الوقت الذي كان اليهود يواصلون في إطلاق الرصاص من نوافذهم، ويذكر أن ابن جلول نجح في تفريق الناس، وبذلك انتهت المصيبة كما أسماها ابن باديس.

ولقد استنتج الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس جملة من النتائج من حوادث هذا اليوم الأول وكلها تتمحور حول ظاهرة التسامح التي يمتاز بها المسلم الجزائري، وعلى عدم تهوره واندفاعه بسرعة أمام الأعمال الاستفزازية، بل يحاول دائما افتكاك حقوقه بواسطة القانون والعدالة.

تجددت أحداث الفتنة في اليوم الموالي أي يوم السبت 4 أوت إذ أنه في هذا اليوم قام مدير الشرطة باستدعاء بعض الشخصيات التي كان لها وزن في قسنطينة وكان على رأسها الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس ليطلب منهم أن يساعدوه على إعادة الأمن والاستقرار إلى المدينة، ولقد تحدث ابن باديس مع مدير الشرطة في هذا الشأن حيث قال له: «إنّ فطرتنا الإسلامية وعقائدنا الدينية واحترامنا لرجال الحكومة كل هذه تحملنا على معاونتكم فيما ذكرتم، ولكن بمزيد من الأسف أن الدين الذي نهذب به الناس ونربيهم، وننزل في قلوبهم الرحمة قد وصلت الإهانة والتعدي إليه، ومع ذلك فإننا سنبذل غاية المجهود»[15].

ومن خلال هذه الكلمات العميقة، يمكن لنا أن نستنتج أن الشيخ الإمام يوجه أصابع الاتهام في كل ما حدث ليلة يوم الجمعة 3 أوت إلى ذلك اليهودي الذي أهان مشاعر المسلمين في دينهم، ولكن رغم كل ذلك فإننا نجده يوجه رسالة اطمئنان لمدير الشرطة على انه سيبذل كل ما في وسعه لتهدئة الأوضاع، وهو من خلال هذه الرسالة أراد إيصال رسالة لهم وهي أن الدين الإسلامي ما هو إلا دين تسامح ورحمة، وهو ما أعاد الشيخ الإمام تأكيده رفقة أصحابه لحاكم العمالة السيد م. لندل M. Lendel الّذي حاول إقناع هؤلاء بضرورة لزوم العافية وتهوين لما كان من اليهودي السكران ووعدهم بأن العدالة ستقتص منه، وهنا يقول ابن باديس أنّه تدخل بالحديث عندما انتهى السيد الوالي من خطابه الطويل، ولقد قدم توضيحات لما حدث «أن هذا الاعتداء ليس هو الاعتداء الأول، وإننا معشر المسلمين نحب السلم بطبعنا، وقد بات مفتينا ونائبنا يهدئان الناس، وأن المسلمين لا يستطيعون الصبر دائما التعدي على أمر دينهم، وإننا نستطيع أن نتمسك بغضب المسلمين، إلا إذا أهينوا في دينهم، فإن الأمر حينئذ يصعب علينا، وأن اليهودي المعتدي على الجامع إذا كان هو سكران فإن زوجته وجيرانه الذين شاركوه في السب وابتدئوا بالضرب ليسوا بسكارى... وأن الشيء الذي جرأ اليهود على هذه التعديات المتكررة هو ما يحملونه من السلاح، مع علمهم بأن المسلمين لا سلاح لهم، وأنهم ما داموا

يحملون السلاح ويطلقون الرصاص لأدنى شيء فإن الشر لا ينتهي، وطلبت منه لذلك نزع السلاح منهم، فاعتذر بأن هذا لا يمكنه معهم لأنهم سيطوايان[16] وطلبت منه أن يقدم بتوصيتهم والتأكيد عليهم في كف عامتهم عن الشر، فأجاب بأنه يفعل ذلك أو قد فعله»[17].

وبعد ذلك يشير الشيخ الإمام ابن باديس أن السيد والي العمالة (البريفي Le préfet) استدعى أعيان اليهود ونوابهم وحبرهم وخطب على الجميع بلزوم التسامح ونسيان لما مضى، وأنه أي ابن باديس تناول الكلمة للمرة الثانية ولكن هذه المرة وجّه كلامه للجماعة اليهودية فذكرهم باعتداءاتهم المتكررة على المسلمين ومن بينها اعتدائهم على أحد تلامذة (الليسي) حيث كسروا ساقه، كما أنهم اعتدوا عليه هو شخصيا، وعلى مدير مجلة (الشهاب) السيد أحمد بوشمال... «وذكرتهم بمسامحتنا وسترنا للواقعة حتى لا يقع بسببها شر، كل ذلك لما نحن مصممون عليه من منع كل فتنة بين السكان، وذكرت لهم أنهم غير ما مرة اجتمعوا مع جماعة المسلمين أمام رجال دار البريفي، وفي كل مرة تعدون بكف سفهائكم، ولكن الاعتداء يتجدد، فهذا إما لأن عامتكم لا تحترمكم، ولا تنقاد إليكم، وإما لأنكم أنتم لم تصدقوا في تهدئتهم وكفهم عن الشر، أو إذا كانت عامتكم لا تنقاد إليكم والحكومة لا تنزع منها السلاح فمن الذي يكفها ويرد عنا شرها»[18].

ويذكر أن المجلس انتهى باعتذارهم عما وقع ووعدهم - كالعادة- بكف سفهائهم، وتصافح الجميع، وتصافت الخواطر، وخرج المجتمعون كلّهم متواعدين على العمل على تنزيل العافية وتوطيد الأمن[19].

عند خروج ابن باديس من مقر العمالة اتفق مع الدكتور ابن جلول على أن يخطبا في الناس مساء ذلك اليوم - السبت 4 أوت- ويطلبون منهم الالتزام بالهدوء، خاصة وأنّ الناس كانوا في هيجان شديد، وتأثر بالغ بسبب أن اليهود اعتدوا على بعض المسلمين في ذلك المساء.

ولقد حدد لهذا التجمع أن يقع عند الجامع الكبير في حدود الساعة السابعة، ولقد لبى الناس النداء حيث امتلأ المكان من جميع طبقاتهم رغم ضيق ما بين وقت المناداة ووقت الاجتماع. ويذكر ابن باديس أنه قبل صعوده لكرسي الخطابة «نادى جماعة بأن اليهود ما زالوا يحملون السلاح لقتلنا، وقد ضربوا وجرحوا في هذا المساء منا»[20].

لقد تمكن كلّ من ابن باديس وابن جلول في تهدئة الناس من خلال ما قالاه، كما نجحا في تفريق الناس بعد انتهاء التجمع حيث «خرج ذلك الجمع الذي يقدر بالآلاف هادئا مهدئا بعدما كان متأثرا هائجا ووقفنا في الطريق العام نفرق الجموع، ونطلب منهم أن يذهب كل واحد إلى محله، وأن يعلم غيره بما دعوناهم إليه من لزوم الهدوء، وما تفرق الناس حتى أقسمت لهم أنني لا أذهب حتى يذهبوا، وكنا عند الخروج من الجامع قد جاءنا خبر صحيح بجرح ولد صغير مكفول لأحد الناس، فاستطعنا - بإذن الله- أن نوقف الخبر عن الانتشار، وأن نهدئ من بلغه وكافل ذلك الصغير»[21].

ويذكر ابن باديس أن كلّ الناس تفرّقوا وخلت منهم الطرقات، ونزل الهدوء التام، وباتت البلدة في أمن وأمان، و«سهرت أنا والدكتور ابن جلول وبعض النواب إلى منتصف الليل نتجول في بعض الشوارع فشاهدنا بأنفسنا هدوءا شاملا للبلدة كلّها»[22].

إلا أن أحداث الفتنة تجددت يوم الأحد 5 أوت، حيث قام اليهود بإطلاق الرّصاص على المسلمين، وهذا في منطقة رحبة الصوف، ولقد حضر الدكتور ابن جلول على هناك لكي يهدئ من هيجان الناس، ولقد انتشر الخبر في أنحاء كثيرة من المدينة، حيث شرع اليهود في رشق الناس بالرصاص من النوافذ، أما المسلمون فكانوا يهاجمون على دكاكين اليهود التي كانت مقفلة يوم الأحد يكسرون أبوابها ويمزقون ما فيها من قماش ويهشمون ما فيها من أثاث، ويمزقون الأوراق المالية.

ويعلّل الإمام ابن باديس أسباب اندفاع المسلمين لمقاتلة اليهود، بأنه لم يكن بدافع الحقد عليهم، ولا لسبب ديني، ولا ببغض عرقي، إنما بدافع غريزة الدفاع عن النفس أمام الخطر المسلح، ويقول: «فالإنسان الأعزل الذي لا سلاح معه عندما يرى خصمه مسلحاً، ويشاهد الرصاص منطلقا من سلاحه يحس بخطر محقق داهم فتتحرك فيه غريزة الدفاع عن النفس فينبعث من غير وعي فينقض على خصمه انقضاض المستميت، فربما قضى عليه رغم سلاحه» ويواصل كلامه بالقول أنه: «... بهذا التقرير العلمي النفسي نعلل ما كان من الجماعة المسلمة العزلاء من السلاح أمام اليهود المسلحين في اندفاعها وما أتت به من أعمال مروعة» ويؤكد أنه انطلاقا من هذه الحالة كان حرصه الشديد على ضرورة «نزع السلاح من اليهود، وقد أمرت السلطة أعوانها بنزع السلاح من المارة في الأزقة، ولكن بعد فوات الوقت...»[23].

ولقد تمادى يهود قسنطينة في اعتداءاتهم على الجزائريين، حيث قاموا لسلة الاثنين 6 أوت بالهجوم على مسجد سيدي الكتاني في رحبة سوق العصر وسط حومة اليهود حيث كسروا حوالي خمسة من نوافذه.

وفي صبيحة يوم الثلاثاء 7 أوت قام الوالي العام باستدعاء وفد من المسلمين، وكان يتشكل من مجموعة من النواب الذين كانوا يمثلون المسلمين عند الإدارة الفرنسية ومن أبرزهم الدكتور ابن جلول، ومختار بن الحاج سعيد المحامي والسيد محمد المصطفى ابن باديس، وكلهم تحدثوا أمام الوالي العام، حيث دافعوا على المسلمين، وبرءوا ساحتهم من تحمل المسؤولية في ما حدث وحملوها لليهود، ويقول ابن باديس أن الوالي العام سأل أعضاء الوفد سؤالا محددا: هل بإمكانهم أن يعدوه بكف المسلمين؟ فأجابه محمد مصطفى ابن باديس: «أنّ المسلمين منفكون بالفعل، وأننا نعد بكفهم، وأننا نستطيع ذلك، بشرط أن يكف اليهود الذين

قد تكرر منهم الاعتداء، فأجاب الوالي العام بأنه يعتمد عليهم، وأنه سيكلم اليهود مثل ما كلمهم»[24].

وعند خروج هذا الوفد من عند الوالي العام استقر رأيهم على تكليف الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس للقيام بمهمة تهدئة الناس في مختلف الأنهج الإسلامية وشوارعها في قسنطينة، إذ يقول الشيخ الإمام: «واتفقوا على أن أقوم خطيبا في كل نهج من الأنهج الكبرى الإسلامية لأخطب في الناس...، فوقفنا بضعة عشر موقفا ألقيت فيها بضع عشرة خطبة أخطب فيها الناس باسم الوفد، وأدعوهم إلى الهدوء والسكينة، وأذكرهم بآداب الإسلام، وأعرفهم بما كان من طلب الوالي العام، وما كان من التزام نوابهم...»[25].

حاول الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس في نهاية مقالته –التقرير- أن يعقد مقارنة عن دور المسلمين واليهود في إخماد هذه الفتنة التي كادت أن تأتي على الأخضر واليابس، فتوصل إلى أن النواب الذين كانوا يمثلون المسلمين قاموا بدور بارز في إخمادها، ودعوا الناس، وحثوهم على الهدوء، على عكس نواب اليهود، وخاصة النائب العمالي اليهودي لولوش Lelouche، فبدلا من أن يدعو يهودهم إلى الهدوء أخذوا يحرضونهم بشكل غير مباشر لمواصلة أعمالهم اللاإنسانية التي تنذر بالانفجار الشامل، «وحضر النائب العمالي اليهودي لولوش فبدلا من أن يهدئ قومه ويأتي باليهودي المعتدي[26] ويدخله حبس الكوميسارية، وكان في استطاعته ذلك لو فعله لأطفأ به تأثر المسلمين في الحين، لأنهم ما كانوا يريدون إلا عقاب ذلك المعتدي على دينهم ونبيهم وجماعتهم ومسجدهم... بدلا من أن يفعل هذا كان تارة يستبعد وقوع ما وقع من الاعتداء، وتارة يستنكر ذلك على المسلمين، وتأثرهم من ذلك الاعتداء إن وقع، ولم يظهر منه أدنى شيء في التهدئة والتسكين»[27].

ويقول ابن باديس ملخصا دور الطرفين: «أبدى النواب المسلمون في كل ما كتبوا ونشروا وتكلموا أمام الحكام غاية التعقل والرصانة والحكمة، وأعلنوا ثقتهم بالحكومة وبالعدالة، وكرروا دعوتهم إلى تناسي الماضي والعمل لخير المستقبل، وجددوا تأسفهم بعبارات دالة على كمال في الإنسانية، وسمو في الدين، أما النائب لولوش وغيره فقد كانت تقاريرهم وخطبهم ومنشوراتهم - وخصوصا رابور[28] لولوش- تهجمات حتى على الحكومة، وتقولات بالباطل، وتكذب على النواب المسلمين، مما ينم عن أمراض قلبية - والعياذ بالله- ويدل على قلة أدب وإفلاس سياسية»[29]، ويذكر أيضا أن نفس الموقف كان من طرف حبر اليهود الذي لم يتحرك، ولم يهتم نهائيا بهذه الأحداث على عكس مفتي المسلمين.

كما نجد الإمام ابن باديس يقف في تقريره هذا عند جزئية صغيرة جدا ولكن لها أهمية خاصة وتتمثل في طريقة دفن قتلى هذه الفتنة حيث يذكر أن اليهود شيعوا موتاهم في مشهد حافل، أما قتلى المسلمين فيقول عنهم ابن باديس بأنهم دفنوا دون أن يشيعهم أحد ودون أن تقال عليهم كلمة ودون أن تراق عليهم دمعة، «علمنا أنهم يدفنون هكذا وسكتنا - لا لهون المصاب علينا، ولا لقلة ألمنا وحزننا- ولكن موافقة للإدارة على تجنب كل ما قد يثير العواطف، ويكون مخيف العاقبة، وعلمت الأمة بهذا ورضيت به انقيادا لرجالها، لما لها بهم من الثقة وإظهارا لما عندها من الرغبة في الهدوء والسكينة والتغلب على العاطفة أمام ما فيه مصلحة عامة»[30].

الخاتمة:

إن أبرز ما يمكن لنا استخلاصه من هذه المقالة- التقرير عن أحداث هذه الفتنة أنها تعدّ وثيقة تاريخية لا يمكن لأن دارس لتاريخ الجزائر في هذه الفترة أن يستغني عنها، ولا لمتحدث عن هذه الفتنة أن يتغاضى عنها، لأنها تتضمن توصيفا دقيقا لما حدث خلال هذه

الفتنة، ومن خلالها أيضا نستشف أن المسؤول الأوّل والمباشر على هذه الأحداث-الفتنة هم اليهود، وأن المسلمين لم يقوموا سوى بالدفاع عن أنفسهم، وأن رد الفعل هذا بعيد كل البعد عن خرافة المعاداة للسامية، كما أن الإدارة الاستعمارية تتحمل جزءا هاما من المسؤولية في هذه الأحداث وذلك بتهاونها في التعامل بكل صرامة وحزم ضد اليهود الذين تمادوا بشكل كبير في عدوانيتهم ضد الجزائريين.

الهوامش:

1. وهذه المقالة موجودة بكاملها في (آثار الإمام عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2008)، الجزء الخامس، ص ص 470- 489. ولقد نشر عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون ملخصا لها في مذكراته ولقد كتب في الهامش أن هذا التقرير ولا شك من إنشاء الشيخ عبد الحميد بن باديس وكتب عن قصد بلغ مفهومة، ولا يخفى فيه من تلطيف بقصد إبعاد بداية المسلمين بالظلم خوفا من الإدارة المتحيزة مع اليهود.
انظر: عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون: الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر، (منشورات السائحي، الجزائر 2010)، الطبعة الثالثة، الجزء الأوّل، ص ص 463- 478.
2. يحي بوعزيز: ثورة 1871 (دور عائلتي المقراني والحداد)، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1978)، ص ص 89- 90.
3. المرجع نفسه، ص ص 90- 91.
4. يوسف مناصرية: النشاط الصهيوني في الجزائر 1897- 1962 (دار البصائر، الجزائر، 2009)، ص 101.
5. المرجع نفسه، ص ص 102- 105.
6. المرجع نفسه، ص ص 107- 110.
7. محفوظ قداش: تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1918- 1978، ترجمة: امحمد بن البار (دار الأمة، الجزائر 2011)، الجزء الأول، ص ص 386- 387.
8. علي مراد: الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، تر: محمد يحياتن (دار الأمة، الجزائر 2007)، ص 199.
9. محفوظ قداش: مصدر سابق، ص 387.
10. ابن العقون: مصدر سابق، ص 458.

11. نفسه، ص 459.
12. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992)، ج3، ص 48.
13. ابن العقون، مصدر سابق، ص 459.
14. عبد الكريم بوصفصاف... وآخرون: معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين (منشورات مخبر الدراسات التاريخية والوطنية، جامعة قسنطينة، مارس 2002)، ج1، ص 44.
15. انظر ذلك في آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مصدر سابق، ج5، ص 472.
16. citoyens أي مواطنين.
17. المصدر نفسه، ص 474.
18. المصدر نفسه، ص 475.
19. المصدر نفسه، ص 475.
20. المصدر نفسه، ص ص 475- 476.
21. المصدر نفسه، ص 476.
22. المصدر نفسه.
23. المصدر نفسه، ص 470.
24. المصدر نفسه، ص ص 483- 484.
25. المصدر نفسه، ص 484.
26. يقصد المتسبب الرئيسي في كل هذه الأحداث الياهو خليفي.
27. المصدر نفسه، ص 486.
28. يقصد تقرير.
29. المصدر نفسه، ص 487.
30. المصدر نفسه، ص 488.